مادة: فن الخطابة

الخطابة العربية الإسلامية

- التعريف.
- عوامل الازدهار.
- الموضوعات ومجالاتها.
- الخصائص الفنية والأدائية.
- فن الإلقاء وخصائصه
- نماذج ممثلة من إنجاز الطلبة.

المبحث الأول: نبذة تاريخية عن فن الخطابة عبر العصور

الى حدود العصر العباسي.

المطلب الأول: العصر الجاهلي

كل ظاهرة في الأمة ترجع إلى عاملين : عُنصرُها ، والبيئة التي أظلتها ، ولذلك يجب أن نُلم إلمامة موجزة في هذا المقام بمزاج العربي وبيئته ، لنعرف هل فيهما ما يدعُو إلى الخطابة والبيـــان.

مما لا شك فيه أن العرب الجاهلين كانت لهم خُطب قوية وأنهم اعتمدوا عليها في مواقفهم الهامة واستعملوها في مجتمعاتهم ودعواهم للحرب أو السلم فقد ذهب الكثير من هذه الخطب مع الزمن وحفظ لنا التاريخ قليلاً منها كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين ولم يبقى من خطبهم شيء ذلك لفشوا الأمية ، وبعد الزمن.

لأن أسباب الخطابة كانت متوفرة لديهم ، فهم متمتعون بحرية قلما توفرت لغيرهم ولهم مقدرة قوية على الحديث، واللغة العربية ذات نغم يثير المتكلم والسامع ويبعث الخطيب على الاستمرار في حديثه ولهذا كانت لهم مقدرة على الإرتجال ومواجهة الموضوع الذي يطرأ من غير أن يكونوا قد أعدوا له حديثاً ، ومع ذلك تأتي على لسانهم العبارات البليغة والحكم الصائبة قال الجاحظ : " فما هو إلا أن يصرف العربي همه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالاً وتنهال عليه الألفاظ انتهالاً " ولا يعني هذا أن خطبهم كانت مرتجلة.

فالبلاد العربية أكثرها بلاد جرداء ، ينذر فيها النبات والماء ، وتكثر الجبال والوهاد والرمال ورمضاؤها ، ولذلك كان سكان هذه الصحراء في رمضاء من العيش وقلة من الزاد ،واكتفوا من الحياة بالكفاف ، ورضوا بالقناعة . واطمانوا إلى الخشونة مع العزة ، ولعدم المواصلات في الصحراء ، وتقطع أسباب الاتصال ، ولم تكُن عند سكانها جامعة تجمعهم تحت حكم دولة واحدة ، بل كانت كل قبيلة كأنها أمة وحدها ، تخضع

لزعيمها ،الأقوى عقلا والشديد في الهيجاء بطشا وتُقدم له الطاعة ، وله فيها الكلمة النافذة ، وما كان اختيارهم زعيما لهم إلا تنفيدا لقانون الانتخاب الطبعي، إذ يرأس القبيلة أقواها عقلا أو أشدها في الهيجاء بطشا ، وأكثرها تمرسا بتجارب الحياة وفنونها. وعلاقة القبيلة بمن سواها من تنازع على مواقع المطر ، ومواطن الكلأ ، وأي احتكاك صغير قد يؤرث عداوة ، ويخضب الأرض بالدماء.

وأطراف البلاد العربية ، كالحيرة واليمن ، والجزء المسكون بقبائل عربية من الشام فيها خصب عظيم ، ولدى تكونت بها حكومات ، ولكن هذه الحكومات قبيل الإسلام كانت واقعة تحت سلطان فارس والروم ، ولابد أن نتصور أن الخضوع للأجنبي ليس من طبع العربي ، ولا يلائم فطرته ، لذلك كان أولائك العرب الواقعون تحت سلطان الأجنبي في تململ ، راغبين في الانسلاخ من سلطانه.

ومكة المكرمة وما حولها للخصب القليل بها ،ولما كان يفد به الحجيج عليها من خيرات وثمار ، ولوقوعها في الطريق الموصل بين اليمن والشام ، واتجار قريش ، ولهذا كله كان بها ثروة ، وسلطان ، وشبه حكومة ، الرياسة فيا لأكبر بيت في قريش، وكان بمكة المكرمة دار ندوة يجتمع فيها زعماء العرب، وأقيالهم من كل نواحي البلاد . هذه إلمامة موجزة أشد الإيجاز لبيئة العرب وأحوالها وهاته البيئة هي التي كان لها الفضل في تكوين العربي الخطيب.

ولكن مما يعاب على الرجل العربي أنه كان عصبي حاد يثور لاتفه الأسباب ويحمل السيف لأول نداء ، اذا استولت على رأسه فكرة نفذها ، من غير تدبر للعواقب ،وأما حسناته فهو أبي لا يرضى ضيما، ولا يسكن إلى ذل ، جواد كريم يؤثر على نفسه ، ولو كان به خصاصة وفقر ، يرعى حرمة الجوار ، ويفي بعهده ....هذه بعض صفات العربي الجاهلي وبعض طباعه التي يتداخل فيها الصالح من الطباع والرديء نظرا للجهل الذي كان يعم آنذاك .فقد مكنته صحراؤه ، وضعف السلطان فيها ، من أن

يعيش عيشة فروسية ، اعتماده في الحماية على سيفه ، لا على حكومة تحميه ، ولا دولة ترعاه .

فالتنازع المستمر ، والحروب الدائمة الناشبة بين سكان الصحراء ، تستدعي بيانا يثير الحمية ، ويقوي العزائم ، ويدفع النفوس إلى متجر السيوف ، وملتقى الحتوف . ولا شيئ يقوي روح المحارب أكثر من قول حافز ، وعبارات تهز أوتار القلوب.

وكثيرا ما كان يعقب حروب العرب التي كانت تقع فيما بينهم صلح تقوم به إحدى القبائل التي لم يكن لها في الخصومة ناقة ولا جمل ، أو شخص ذو عقل راجح أو ذوي النفوذ.ومجالس الحرب تبين فيها أضرار الحرب ، ووشائج القربى بين القبيلتين المتنازعتين .ان كانت ، وذلك لا يكون إلا بالخطابة أداة الترغيب في النافع، والترهيب من الضار الوبئ وكمثال على ذلك الصلح الذي جرى فيه هرم بن سنان ، والحارث بن عوف عندما أصلحا بين عبس وذبيان .

وإذا علمت أن العرب كانت لهم دار ندوة يجتمعون فيها ويتشاورون ويساجلون ويقررون ما يرونه صالحا ، ولهم أسواق هي شبيهة بالمنتديات الأدبية ، كانت منابر عامة تروج فيها بضاعة الكلام البليغ ، وتزجى فيها غيرها .كانت في العرب مساوئ كما أسلفنا ، وكانت بالغة الحد الأعلى من الشناعة وقد نعاها القرآن الكريم عليهم ، وكان بعضم يستنكرها منهم قبيل الاسلام ، لذلك تصدى هؤلاء للدعوة بخطب رائعة إلى الفضيلة ، والحث عليها ، ونبذ العادات السيئة ،والخرافات الباطلة ، وربما كان أظهر هؤلاء الدعاة أكثم بن صيفى، وقس بن ساعدة الإيادي .

المطلب الثاني: الخطابة في صدر الإسلام

في عُصور الإنقلابات الفكرية والاجتماعية والسياسية تسود الخطابة ، حيث يصدم القديم والجديد ، والمألوف، بماهو غريب بدئ، إذ تدهش له العقول ،فتتحير بعض

الألباب أمدا طويلا أو قصيرا وتضطرب بعض النفوس بين ما ألفت من قديم ، وما عرفت من حديث، وينكر الحق بعض الذين يرون مصلحتهم العاجلة في التمسك بالقديم، والأخذ بأهدابه، والنفوس الصافية، والقلوب الزاكية تدرك الصواب، وتدحضُ عنها أدران الباطل ،تمحص الحق وتتحلب صائغه ، ونتجه إلى نوره، حتى يشتد الاختلاف بين أولائك وهؤلاء.كل يدلي بحجته ،وكل يريد اجتداب الجماعة إلى طريقه، وكل يتخذ وسائل الإغراء لتسلك مهيعه، وذلك بلسان درب وبيان رائع، وبلاغة واصلة إلى أعماق القلوب.وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم قد أحدث دينه الحق انقلابا سياسيا ،ودينيا ،واجتماعيا ،وفكريا في العرب (بل كل في كل العالم)لم ير التاريخ له نظيرا، فلابد أن تكون قد صحبته حركة بيانية خطابية، لم تعرف في امة من قبل، وكذلك كان، بمجرد أن صدع النبي صلى الله عليه وسلم بالحق، ودوى صوته الرهيب الكريم في بلاد العرب، وانبعث ذلك النور الوضاح، فأضاء السهول والجبال، بمجرد ان كان هذا، تجرد المقاول من العرب للرد عليه او الدعوة إليه ، وكان وهو الفصيح القرشي، ذو البيان النبوي يجادل ويناضل، ويدافع ويصاول، وليس له إلا لسان أيده روح القدس، وحق اوحى الله سبحانه به ، وإذا عرفت ان الحجة التي كان يدلي بها برهانا على رسالته وحجة لدعوته من نوع الكلام ، ون كان من رب العالمين ، وفيه المثل الكامل للبلاغة ، إذا علمت ذلك ،وعلمت أن العرب قوم اشتهروا بالفصاحة والبيان. علمت أي مقدار من البلاغة قد استفادته الخطابة العربية بالدعوة المحمدية الخطابة[1]

المطلب الثالث: الخطابة في العصر الأموي

هذا العصر هو ثمرة الأحداث التي حدثت في آخر عصر الخليفة الثالث، وطول مدة الخليفة الرابع ، أو إن شئت فقل إنه امتداد لبعض الحوادث التي كانت في عصر

[1]- الخطابة لأبي زهرة ص 200.

علي، أو صدى لما كان فيها، فالدعوة إلى الغخذ بدم عثمان كانت هي الفكرة التي نبت منها السلطان للأموية ، واستمر نحو تسعين سنة وسط السيوف والرماح المشرعة، والدم المهراق، ولم يسكن الناس لها إلا بعد أن سفكت دماء، وهتك الحمى، فقد أبيحت المدينة في عهد يزيد بن معاوية، وقتل الحسين قتلة فاجرة، وكان بعد ذلك ما كان من خروج ابن الزبير، واتساع سلطانه ،ثم استقامة الأمر لعبد الملك بن مروان بعد أنخاض في الدماء خوضا ، ومرج فيها مرجا، والخوارج الذين ظهروا في عهد علي رضي الله عنه ، تفاقم خطبهم، واشتد أمرهم في ذلك العصر، وكانوا شوكة حادة في جانب الدولة الأموية ، تمنعها من أن تتقلب في أعطاف النعيم الهادئ الساكن، وأن تستسيغ لذة الملك صافية من غير أن ترنق بما يكدرها . والشيعة الذين ظهروا في آخر عصر عثمان رضي الله عنه قد اتسعت مذاهبهم، وكثُرت دعاويهم، وتفرقوا فرقا ونحلا مختلفة، وكانوا أحيانا يرفعون السيف، ويدفعون أحد أولاد علي ، وأحيانا يسكنون، وينشرون بين الناس أفكارا ليست من الدين في شيء، ومنها ما ينقض مبادئ الدين، ويذهب بقوته.

وفي هذا العصر لم يفن العرب في غيرهم ، ولم تلاشهم المدنيات والحضارات الأجنبية التي غزوها ، وحاولت بما عندها من علوم أن تغزوهم، بل كان الأمويون ذوي تعصب شديد للعرب والعربية ، وكانوا حريصين على أن يربوا أولادهم على خشونة البادية، وفصاحتها ولسانهان فكنوا يرسلونهم والعود اخضر إلى البادية ليتفصحوا بفصاحة أهلها ويذوقوا شيئا من خشونتها، ليتربوا على البأس والنجدة والهمة والنشاط، وإذا لم يفعلوا ذلك مع أحد منهم اعتقدوا فيه النق حتى قال عبد الملك بن مروان في ابنه الوليد، أضر بالوليد حبُنا له، فلم نوجهه البادية، لذلك كانت الحياة العربية مع قوة الحضارة مختلطة بالبداوة.

ولان كان التاريخ يحفظ للأمويين حفاظهم على العربية وحرصهم على توطيد سلطان العرب ، حتى كان منهم الولاة والأمراء وذو السلطان ، لن ينسى التاريخ أنهم صروا الخلافة ملكا عضوضا، يتوارث، حتى كان منهم الولاة والأمراء وذووا السلطان ، وأنهم غلبوا سياسة القهر، وحاولوا نشر كل شيء من شأنه أن يبعد ملكهم عن منافسة المنافسين ، وطمع الطامعين ، ودفعهم الأمر إلى مجاوزة حد الاعتدال .وقد كان من أثر منازعة العرب لهم ، ومغالبتهم إياهم ، ومحاولة الأمويين نشر سياستهم مناحرات بالسيف، ومنازعات بالقول، أفادت منها الخطابة أكبر فائدة ، وانتفعت منها أكبر النفع.

دواعي الخطابة وموضوعاتها فيلك العصر

المطلب الرابع: الخطابة في العصر العباسي

يتشابه صدر الدولة العباسية مع صدر الدولة الأموية وسطها في بعض الوجوه، لأن كلتا الدولتين نشأت في وسط فتنة هوجاء ، كثيرة العنف قوية الأثر، شديدة اللجب، ولأن كلتيهما ما تكاد أن تستقر حتى يخرج الخارجون من كل ناحية ، وتهدد الدولة بالتمزيق ، والوحدة بالانقسام والخلفاء الأوائل في كلتا الدولتين ، كانوا ذوي بيان ولسن ، القول البليغ عندهم وذخيرتهم . ولهذا التشابه كانت الخطابة رائجة في صدر الدولة العباسية، كما كانت رائجة في صدر الدولة الأموية ووسطها ، وكانت موضوعات الخطابة في الدولتين متقاربة ، ودواعيها متشابهة.

ومن دواعي الخطابة في ذلك العصر:

الدعوة العباسية:

قامت الدولة العباسية على إثبات حق آل البيت رضوان الله عليهم في الخلافة ، وأنهم أولى الناس بها ، لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنهم صفوة قريش المختارة ، ولأن الله سبحانه اختصهم بفضل ليس في غيرهم، قامت دعوة بني العباس

على ذلك ، وعلى بيان مظالم الأمويين ، واعتسافهم ، وما ارتكبوه من مآثم في أول عهدهم وآخره ،وما أباحوه من دم آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ قتلوا الحسين أولا قتلة فاجرة.وقتلوا أحفاده زيد بن علي ويحيى ابنه، وقتلوا إبراهيم الغمام الآخر.

وذلك كله ببيان رائع ، وخطب قيمة وقول بارع ، وبلاغة واصلة إلى أعماق النفوس، مثيرة نقمة الناس عليهم ، وحافزة الأنصار على الإنتقام منهم ، لذلك كانت الدعوة العباسية موضوعا من موضوعات القول ، وداعيا من أعظم دواعيه ، وأقرأ خطب داوود بن علي غيره من خطباء العباسيين تر ذلك واضحا كل الوُضوح.

بيان سياستهم:

لما تم الأمرلبني العباس، كانوا يعلنون سياستهم على المنابر، ليُوازن الناس بين حكمهم وحكم الامويين ، وقد كان بعضهم يحاولُ أن ينهج في ذلك منهج اخلفاء الراشدين، يسن الخطة. ويبين أنه يقيم الحدود ، وينفذ أحكام الله تعالى، ويعلن سلطانه، وانظر إلى قول السفاح في بعض خُطبه: والله لا أعدكم إلا وفيت بالوعد والوعيد، ولأعلمن اللين ، حتى لا تنفع إلا الشدة ، ولأغمدن السيف إلا في إقامة حد، أو بلوغ حق ، ولأعطينكم حتى أرى العطية ضياعا.

بسم الله الرحمن الرحيم

المتن الخطابي الإسلامي

و

مجال موضوعاته

تقديم:

لقد كان للكلمة – ولا يزال – أثرها الفاعل وقيمتها الكبرى ودورها الحاسم في عمليات التغيير الإنساني على صعيد الدين والعلم والفكر والسياسةوالاقتصاد والاجتماع ... فالكلمة هي وعاء المعنى ورسوله إلى القلوب والعقول، وهي القناة التي يتفاهم من خلالها البشر ويتناقلون الآراء والأفكار. وكلما تقدمت الحياة وتطورت معارفها، ازدادت قيمة الكلمة في حياتنا، وازداد دورهـا خطورة.

إن الإسلام - دين الإنسان في كل زمان ومكان - لم يغفل دور الكلمة، بل وضعها في إطارها الصحيح، واهتم بها الاهتمام اللائق، فجعلها الوسيلة لهداية الناس، وتربية الأمة، وتوعية المجتمع، وصياغة الإنسان الإيجابي الصالح. وإمعانا منه في توظيف الكلمة كانت الخطبة شطر الصلاة التي هي عماد الدين في الأعياد والجمعات والجماعات كما قال**العسكري**. فمن خلال منبر الخطابة طرحت مفاهيم العقيدة وتعاليم الشريعة، وسير الأنبياء والصالحين، ومن خلال هذا المنبر الحي المتجدد عولجت المشاكل الآنية وتم التحميس ضد الغزاة وبعث روح الجهاد ...

فما هو مفهوم الخطابة ؟

وما هي العوامل التي ساهمت في ازدهارها في صدر الإسلام ؟

وما هي المجالات الموضوعاتية التي تناولها المتن الخطابي الإسلامي؟

1.مفهوم الخطابة

أ- لغة:

جاء في لسان العرب أن الخطب بالسكون أي الشأن أو الأمر صغر أو عظم.

وقيل هو سبب الأمر، ويقال ما خطبك ؟ أي ما أمكرك ؟

ب-اصطلاحا :

ذهب الشريف الجرجاني إلى القول بأنها : " قياس مركب من مقدمات مظنونة من شخص معتقد فيه والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم ". وكما يستفاد من مجموع التعريفات الواردة في كتب الأدب العربي أن الخطابة فن شفوي أدبي بليغ، يقوم على عنصري الإقناع والتأثير في الجمهور الذي يخاطبه الخطيب، وهي بذلك تختلف عن الشعر غريزة ونظما وبناء ووظيفة، كما أنها تختلف عن القول المكتوب بصورة عامة إبداعا وتلقيا.

2.عوامل ازدهار الخطابة

كانت الخطابة الوسيلة المفضلة لتبليغ أي خطاب كيف ما كان لما لها من تأثير مباشر و سريع، فكان من الطبيعي أن يعرف العرب هذا الفن الشفوي منذ أقدم العصور. فإذا استصحبنا التاريخ، نجد أن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور يفوق ما تكلمت به من الموزون. إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره، لأن الخطيب إنما كان يخطب في المقام مشافهة فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه و نسيه من نسيه، بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد.

و هكذا فإن معرفة عرب الجاهلية بالخطابة وبأساليبها وطرق الخوض فيها واعتمادها وسيلة للإقناع والتأثير، ثابتة ومؤكدة حتى أن القرآن الكريم وصفهم بكثرة الجدل واللددعند الخصومة واستمالة الأسماع بحسن المنطق،ومنها قوله تعالى :**{وإن يقولوا تسمع لقولهم}** (الآية 4المنافقون) ، وقوله تعالى أيضا :**{وتنذر بهم قوما لدا }** (الآية97 مريم). غير أن المتأمل للنصوص الخطابية التي وصلتنا عن هذا العصر، يجدها بسيطة وأحيانا ساذجة، وخاصة إذا ما قورنت بنصوص الخطابة الإسلامية، ولذلك فإن **مجيء الإسلام** دفع هذا النوع من القول الفني إلى الازدهار والرقي، حيث أن الخطباء استفادوا من **المعجم اللغوي للقرآن الكريم** ومن أساليبه البلاغية والبيانية، كما استفادوا أكثر من أساليبه الحجاجيةوالإقناعية، ومن منهاجه السامي في الدعوة إلى الإسلام التي ينبغي أن تكون على بصيرة، وأن تعتمد الحجة والدليل، وأن تسلك سبل الحكمة والموعظة الحسنة،وتتبع الجدال الحسن كما جاء في الآية

الكريمة : **{قل هذه سبيلي أدعو إلـى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنـي و سبحان الله وما أنا من المشركين}(الآية108يوسف)** ، وقال تعالى : {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن } **(الآية125النحل)** .

وتكاد تكون الخطابة الجنس الأدبي الأوحد في ذلك العصر الذي استجاب لمنطق هذه الدعوة ومتطلباتها، وذلك لأنها تعتمد الشواهد والحجج والبراهين، وتخضع لمقتضيات الاحتجاج والجدل،وتوظف الأساليب البليغة بهدف الإقناع والتأثير،ولذلك اعتمد عليها الرسول ﷺ وجل الدعاة في دعوة الناس إلى اعتناق الإسلام على امتداد التاريخ الإسلامي.

كما أن **حرية التعبير ومبدأ الشورى** اللذان كفلهما الإسلام ساهما في ازدهار ورقي فن الخطابة،وشهد هذا الازدهار أوجه مع مجيء العصر الأموي الذي عرف تطورات سياسية بظهور عدة فرق، كل فرقة تدافع عن رأيها وتنشر مبادئها عن طريق الخطابة والشعر.

3. المجالات الموضوعاتية التي تناولها المتن الخطابي الإسلامي

3.1. المجال الديني

إن الخطابة فن عريق من فنون القول، اهتدى إليه الإنسان منذ فجر التاريخ ووظفته الحركات الدينية و السياسية في العصور كلها. وكان الإسلام أكثر هذه الحركات توظيفا لهذا الفن الخطير، فارتقى به من الوسيلة إلى العبادة و قرنه بفريضة صلاة الجمعة التي استمرت عبر القرون شعيرة خالدة و معلما بارزا من معالم المجتمع الإسلامي، حافظ على استمراريته في أسوأ الأيام التي مرت بعالمنا الإسلامي.

حتى في العصر الذي انحسر فيه مد الإسلام و تخلف فيه المسلمون و غابت منه الخلافة الإسلامية، ظلت خطبة الجمعة منبرا صامدا للإسلام تفيء إليه الجماهير المسلمة من قيظ الفساد و الضياع و الانحراف الذي يلوث حياتها،و ظل صوت الخطباء المسلمين عاليا يصدع كل أسبوع بكلمات الحق، و يذكر المسلمين بأيام الإسلام المجيدة و عزهم المفقود، و يحذر من الأخطاء المحدقة بالأمة و التحديات الكبرى التي تنتظرها.

أ-في مجال الدعوة إلى الله:

تحدثنا السيرة النبوية عن الرسول صلى الله عليه و سلم كنموذج الخطيب البارع، حيث نجده صلى الله عليه و سلم عند تتبعنا لنصوص الخطابة الأولى،يتبنى نمطا خاصا من الأسلوب و الحجج والبراهين في الدعوة إلى توحيد الله تعالى, مراعيا بذلك حال المخاطب الذي يطلب منه تغيير معتقده،الشيء الذي يستلزم إثبات مزايا المعتقد الجديـــد و نقائص

المعتقد القديم،معتمدا في ذلك على ما يربطه صلى الله عليه و سلم من وشائج القرابة و متانة الثقة و عظم الأمانة بقومه،ومن ذلك خطبته صلى الله عليه و سلم عندما أمره الله تعالى أن يصدع بالدعوة،حيث نجده أثناء قسمه،أورد كلمة التوحيد "والله الذي لا إله إلا هو" و هي عبارة توسطت الخطبة،مما يعني أن الرسول صلى الله عليه و سلم لم يكن يريد أن يقرع بهذه الكلمة أذانهم مباشرة من أول وهلة،فاعتمد أسلوبا غير مباشر لأنها كانت أول دعوة جهرية،فكان همه صلى الله عليه و سلم هو إقناع المشركين بأنه نبي مرسل من عند الله و إذا سلموا بذلك، سلموا بوحدانيته،وإذا سلموا بوحدانيته،سلموا بشرائعه.

و لسمو العقيدة الإسلامية و مبادئها،نجد القرآن الكريم يوجه المسلمين إلى عدم سب عقيدة غير المسلمين،و عدم جدال أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، حيث قال تعالى **{و لا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم }** الآية 108 الأنعام و قال أيضا:**{و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن}الآية64 العنكبوت.**

ب- في مجال الوعظ:

إن العديد من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية،تشير إلى أن إيمان المسلم،يحتاج إلى تجديد بالذكر و التذكير ومن ذلك قوله تعالـــى:**{و ذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين }** الآية55الذاريات و قوله تعالى:**{وعظهم و قل لهم في أنفسهم قولا بليغا }الآية63 النساء.**

و قد كانت الخطب الوعظية، ولا تزال أكثر الخطب شيوعا، تهدف إلى تبصير الناس بشؤون دينهم و حثهم على تقوى الله و طاعته،و التفكير في الموت و ما ينتظر الناس في الآخرة من حساب و عقاب.

و على هذا الأساس شكلت الخطب الوعظية العمود الفقري للخطابة الإسلامية بصفة عامة ،حيث نجد الوعظ حاضرا في جميع موضوعاتها على اختلاف أنواعها و اتجاهاتها,ولقد كان هناك خطباء وعاظ كبار اقترنت أسماؤهم بالوعظ في كل مجال،نذكر على سبيل المثال :**الحسن البصري** الذي اشتهر بمواقفه الجريئة مع **الحجاج بن يوسف الثقفي**،الذي كان خطيبا لسنا ، مالكا لأساليب الإقناع، عارفا بأحوال السامعين مدركا للطرق التي يمكن أن تأخذ بألباب المخاطبين، يأمرهم بالخير حتى و إن كان شريرا في ذاته.

لكن هذا لا يمكن أن ينتقص من قيمة الخطب الوعظية،و لا يمكن أن يدل على أن هذه الخطب قد فقدت قيمتها، بل على العكس،فقول الحجاج المخالف لفعله صفة كثيرا ما لازمت الجبابرة الظالمين.

كما أن الخطبة الوعظية قد تكون مقصورة على فرد واحد من المستمعين،كوصايا لقمان لابنه،ذلك أن اعتمادها الحجة و توخيها الإقناع،يجعلها تندرج بسهولة ضمن الخطابة.

و بما أن الوعظ يشمل جميع جوانب الحياة، فقد كان الخطيب الواعظ يتطرق إلى كل الموضوعات حسب ما يتطلبه المقام حتى ولو كان مقاما حربيا و مثال ذلك خطبة أبي بكر لأسامة بن زيد وجيشه لما بعثه إلى الشام .

من خلال ما سبق،يتبين لنا مكانة و أهمية الخطابة في المجال الديني،مما يستوجب حسن توظيف هذا الفن انطلاقا من التركيز على ضرورة الاستثمارالجيد لمنبر الجمعة باعتباره منبرا إعلاميا إسلاميا فاعلا،في وقت أصبح فيه الإعلام أخطر و أمضى أسلحة التغيير، و على هذا الأساس نجد الخطابة حاضرة بقوة في المجال السياسي.

3.2. المجال السياسي:

قال أبو هلال العسكري وهو يعرف الخطابة:"وما يعرف أيضا عن الخطابة والكتابة أنهما مختصتان بأمر الدين والسلطان وعليهما مدار الدار".

وهذا يعني أن الخطابة لها دور سياسي خطير، إذ باستطاعة الخطباء أن يوطدوا دعائم سياسية معينة، كما باستطاعتهم أن يعلنوها ثورة جامحة.

وإذا تتبعنا النصوص الخطابية على امتداد التاريخ الإسلامي نجد أنها تتحدث عن : حقوق الراعي وواجباته على الرعية وواجبات الرعية وحقوقها على الراعي، بالإضافة إلى شؤون السلم والحرب.

وبما أن السياسة لا تنفصل عن الدين من منظور الإسلام فإن بواكير الخطابة السياسية قد بدأت مع فجر الدعوة الإسلامية، حيث نجد خطبا عديدة للرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ترتبط بمجال السياسة وتسيير شؤون الرعية كالتشاور بين المسلمين في السلم والحرب، أو تولي الخلافة والولاية.

بعد وفاة الرسول ﷺ اختلف المسلمون في شؤون الخلافة، لذلك نشطت الخطب السياسية، خاصة بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فتزايدت الاضطرابات الداخلية المرتبطة بقضية الإمامة، فعرفت الخطابة السياسية ازدهارا كبيرا خلال العصر الأموي الذينعته بعض الدارسين بالعصر الذهبي للخطابة السياسية حيث برز العديد من الخطباء في هذا العصر على رأسهم الخلفاء والولاة والعمال، وذلك في عدة مجالات منها :

أ-مجال الإمامة ومقتضياتها

من المعلوم أن الإمامة أمر شرعي، باعتبارها خلافة للنبوة واستمرارا لتطبيق شرع الله، ورمزا لوحدة المسلمين وعزتهم، وتبعا لذلك كان الخطباء يحاولون تثبيت المفاهيم المرتبطة بها وإقناع الناس بمقتضياتها **(دور الراعي والرعية)**.

وقد ساهم ظهور الفرق الإسلامية خلال العصر الأموي في توجيه الخطباء نحو الإشادة بمحاسن فرقهم وأحزابهم، وتأييد السلطان أو معارضته بحسب انتماء كل واحد منهم.

ومن ثم كان الخطيب يحاول استمالة الجمهور إلى صفه وإقناعه بوجهة نظره وتأليبه على من يخالفه، موظفا كل طاقاته **(ثقافته الدينية، معارفه التاريخية والاجتماعية والسياسية محفوظاته العامة وخاصة الأدبية منها، بلاغته الإقناعية...)**

وكانت خطب الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة رضوان الله عليهم مطبوعة بطابع إسلامي صرف، حيث كان مضمون الحديثين النبويين : **(لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)** و **(كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته)** شعارا عاما لخطب هذا العصر، تجلى في المعاني السامية التي تضمنتها من إقرار للحق ودفع للباطل، ونشر العدل وإرساء دعائم الشورى ورفع مكانة الضعيف وغيرها من المبادئ الإسلامية.

وقد سارت طائفة من الخطباء الأمويين على نهج الخلفاء الراشدين مثل عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن الوليد، واعترف بعضهم بابتعادهم عن النهج الراشد للخلافة كرها لا طوعا بسبب تغير أحوال الرعية ذاتها لتبرير سلوكهم، ومنهم معاوية بن أبي سفيان وعبد المالك بن مروان، في حين ترجمت خطب أخرى بطش بعض الولاة وظلمهم مثل خطب الحجاج وزياد بن أبيه،غير أن ذلك لا يمثل سوى استثناء لا حكم له كما يقال، بحسب ما ذكره الدكتور عبد الرحيم الرحموني.

ب- مجال السياسية الحربية

تعد الخطب الحربية من أبرز الخطب التي أبدع فيها المسلمون، فلقد كانت ساحات الوغى تعج بالخطباء من القادة والجند والوعاظ، حتى إن المعارك التي لا يحضرها الخطباء كانت تنتهي بالهزيمة في الغالب.

وهكذا تزخر كتب المغازي بالعديد من الخطب التي تشهد على بسالة المسلمين وتضحيتهم في سبيل الله بالغالي والنفيس إعلاء لكلمة الحق.

ورغم أن الخطابة الحربية عرفت منذ العصر الجاهلي، فإن هناك فرقا نوعيا وفنيا بين الخطابة الحربية في الجاهلية ونظيرتها في الإسلام. فالخطيب في الجاهلية يحث الجند على

عدم الاستسلام والصبر حمية وعصبية وفخرا واعتزازا بينما نجد الخطيب في الإسلام يحث على ذلك امتثالا لأمر الله ونصرة لدينه، وهكذا نجد فروقا واضحة على مستوى الشكل المضمون.

فبخصوص مضمون الخطبة الإسلامية نجد الحضورالقوي لروح الإيمان بالغيب سواء من حيث الخلفية المحركة للجهاد أم من حيث الهدف من القتال و الذي هو إعلاء لكلمة الله ونشر دينه.كما أن الإقدام و الثبات في ساحة المعركة لم يكن رياء أو سمعة و إنما من أجل الحصول على إحدى الحسنتين النصر أو الشهادة. على عكس الخطبة الجاهلية التي لم تزد على تأكيد فضيلة الثبات والصبر مقابل الفرار والهزيمة.
كما أنه من ناحية الشكل هناك فرق أيضا سواء على مستوى البناء أم على مستوى: التعبير و الحجاج حيث نجد تسلسلا للأفكار و وضوحا في المعاني في الخطبة الإسلامية فضلا عن حضور شواهد من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف بينما لا نجد أي شيء من ذلك في الخطبة الجاهلية.

كما أن الخطب الحربية في الإسلام تارة تكون مسجوعة مثلها مثل الخطبة الجاهلية وتارة لا تكون كذلك، وعموما فالسجع لا ينتقص من قيمة الخطبة الحماسية التحريضية لأن إيقاع السجع يتناسب وقعقعة السيوف، وجلبة الخيل ودق طبول الحرب، مما يخلق إيقاعات مختلفة، هي تقدير صاحب الكتاب.

وفي المقابل نجد خطبا حربية احتوت خطط عسكرية أو أوامرحربية، فكان لها شأن كبير في نصرة الإسلام كما هو الحال في خطبة طارق بن زياد المشهورة التي انتهت بفتح الأندلس، وخطبة أبي عبيدة بن الجراح التي خاطب بها الرماة في معركة اليرموك، والتي آلت إلى فتح عظيم للمسلمين.

وعلى كل حال فإن المتأمل لكتب الأدب والتاريخ والسير والتراجم يلحظ كثرة النصوص الخطابية الحربية المبثوثة فيها، سواء منها تلك التي تحمس وتحث على الجهاد، أو تلك التي تبشر بفتح جديد، وذلك في قالب فني متماثل أحيانا، مختلف أحيانا أخرى، وهو ما يدل دلالةكبيرة على ازدهار الخطابة الحربية في العصر الإسلامي و حضورها بقوة في ساحة المعارك.

3.3. المجال الاجتماعي:

وهي تلك المقامات والمحافل العامة، والتجمعات الشعبية التي كانت الخطب تلقى فيها لغرض من الأغراض المتصلة بالحياة الاجتماعية كالزواج والمخاصمات القضائية وإصلاح ذات البين، والتهنئة والتأبين والتعزية، وغير ذلك من شؤون الحياة العامة دون إغفال الجانب الديني الذي كان حاضرا في كل هذه المجالات الخطابية، ولما للخطابة من

تأثير في قلب السامع كان لابد من إلقاء خطبة عند كل تجمع لطائفة من الناس. ومن المناسبات التي كانت تلقى فيها الخطب نذكر:

أ-مناسبات الإملاك:

هي خطبة النكاح و تختلف عن أنماط الخطابة الأخرى بحيثتكون لها مقدمة خاصة طويلة من الخاطب وقصيرة من المجيب، والخطيب يكون قاعدا لا قائما وسبب ذلك كما قال الأصمعي أنهم :" كانوا يستحبون من الخاطب إلى الرجل حرمته الإطالة، لتدل على الرغبة، ومن المخطوب إليه الإيجاز، ليدل على الإجابة. ومن المعلوم أن خطب النكاح كانت تهدف إلى التعارف بين الطرفين وتقريب وجهات النظر وخاصة من جانب الخاطب أما المخطوب إليه فتكون خطبته تعبيرا على قبوله أو رفضه ويكون القبول أحيانا مصحوبا بنصائح للخاطب، وبالنظر في نصوص خطب النكاح، فقد كانت معروفة منذ العصر الجاهلي وأشهر خطبة وصلت إلينا هي خطبة أبي طالب في زواج رسول الله ﷺ من السيدة خديجة رضي الله عنها حيث قال :" **الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوبا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمدا بن عبد الله بن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه، برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا، وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعلي** ".

وقد طبعت خطبة الإملاك بعد البعثة النبوية بطابع إسلامي واضح أساسه أن النكاح يجمع بن الأنساب ويقوي أواصر الأرحام، وأنه فطرة وسنة مصداقا لقوله تعالى : **{ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة }الآية21** الروم، وكذا قوله عز وجل : **{وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا }الآية 54 الفرقان** .

وأشهر خطبة في هذا الباب، خطبة الرسول ﷺ في تزويج علي لفاطمة رضي الله عنهما، حيث أنها كانت متميزة شكلا ومضمونا باكتسابها من بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة خاصة مع العلم أن خطبة النكاح تتطلب جرأة ورباطة جأش وبلاغة أكثر من الخطب الأخرى. مما جعل كثيرا من الخطباء يتهيبون هذا النوع من الخطب حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :" ما يتصدعني شيء كما تتصدعني خطبة النكاح" وذلك لعدة علل منها مدح الخاطب بما ليس فيه فيكون زورا ولكن حسب الجاحظ الذي قال بان الخلفاء الراشدين وأشباههم من الصالحين لم يكونوا ليتكلفوا ذلك الأمر إلا فيمن يستحق المدح. وهذا دليل على أن هذا النوع من الخطابة ليس بالشيء اليسير حتى أن قريشا في الجاهلية على مكانتها البيانية وفصاحتها اللغوية، كانت تردد نصا واحدا وهو : "باسمك اللهم ذكرت فلان وفلان بها مشغوف باسمك اللهم لك ما سألت ولنا ما أعطيت".

ب- مناسبات المخاصمات القضائية:

وهي المناسبات التي كان فيها المتخاصمون يدافعون فيها عن وجهة نظرهم أمام القاضي أو الحاكم أو الخصم، ولقد شجع على هذا النوع من الخطب استقلال القضاء في الإسلام، وحرية المظلوم أو المتهم في الدفاع عن نفسه أو توكيل من يراه أهلا لذلك، وفي هذا المجال كان للمرأة دور مهم لاشتهارها بالإجادة في هذا النوع من الخطب، ونذكر من بين الأمثلة الكثيرة في هذا الميدان حدث الأم التي أرسل إليها ابنها من المال، فرفض الرسول أن يدفع إليها حتى تكون معها البينة على أنها أمه، فلما اضطرت إلى الإتيان بمن يعرفها والكشف عن وجهها، قالت : "الحمد لله، وأشكو إلى الله الذي أبرزني، وشهر بالفاقة أهلي" فلما سمع الرجل كلامها البليغ شهد بأنها أمه وأعفاها من البينة.وكما هو الحال في الحوار المشهور الذي دار بين خولة بنت ثعلبة حينما ظاهر منها زوجها وبين الرسول ﷺ بعد أن رفعت أمرها إليه وذلك باجتهادها في الشكوى والدفاع عن نفسها حتى أن الله سمع شكواها من فوق سبع سماوات فانزل فيها قرآنا يتلى كما هو معروف.

ج- مناسبات إصلاح ذات البين:

وهي تلك المناسبات التي كان يدعو فيها الخطباء إلى الإصلاح فيما بين الناس سواء أكانوا أزواجا أو أفرادا في المجتمع أو جماعات متخاصمة أو متقاتلة داعين فيها إلى نبذ الحرب وبيان ما فيها من دمار وإلى التصافي والتواصل ونبذ الأحقاد والتقاطع، ولقد بين الجاحظ أن هذا النوع من الخطب يستحب فيه التطويل لكن دون إملال السامعين، ولقد اكتسى هذا النوع من الخطابة مكانة خاصة بعد الإسلام في ضوء الأمر الرباني بوجوب الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق والإصلاح فيما بين الناس أفرادا وعشائر وطوائف قال تعالى : **{وإن طائفتان من المومنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما }** إلى قوله تعالى :**{إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم }الآية 9-10 الحجرات.**

ومن خطب الرسول ﷺ في هذا الموضوع خطبته التي أصلح فيها بين الأوس والخزرج بعد أن حاول اليهود الوقيعة بينهم عن طريق تذكيرهم يوم بعاث في الجاهلية، فلما هاج الناس وبلغ الخبر رسول ﷺ جاءهم وخاطبهم قائلا : "يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ بعد أن هداكم لله للإسلام،وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم ... ".

د- مناسبات التأبين والتعزية والتهنئة:

مناسبة التأبين والتعزية هي التي ترتبط بموت أحد الأشخاص حيث تلقى خطب يدور موضوعها في الغالب حول ذكر مناقب الميت، وما خلف فقده من الحزن والأسى مع الدعاء

له بالمغفرة والرحمة ولأهله بالصبر، وعادة ما يلجأ الخطيب فيها إلى وعظ الناس باعتبار أن الموت أكبر واعظ للإنسان كما ورد في الحديث النبوي، وكما جاء في قول عمر بن عبد العزيز حينما توفي ابنه عبد الملك إذ قال : " الحمد لله الذي جعل الموت حتما واجبا على خلقه، ثم سوى فيه بينهم فقال : **{كل نفس ذائقة الموت }** الآية 185 ءال عمران .فليعلم ذوو النهي أنهم صائرون إلى قبورهم بأعمالهم، واعلموا أن عند الله مسألة فاحصة فقال عز وجل :**{ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون } "الآية 93سورة الحجر.**

ومن بين أشهر خطب التأبين خطبة عائشة أم المؤمنين رضي لله عنها لما توفي أبوها أبو بكر رضي الله عنه حيث قامت على قبره وقالت : "نضر الله وجهك، وشكر لك صالح سعيك، فقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها، وللآخرة معزا بإقبالك عليها، وإن كان لأجل الأرزاء بعد رسول الله صلى لله عليه وسلم رزؤك، ولأكبر المصائب فقدك، وإن كتاب الله ليعد بجميل العزاء عنك حسن الغوص منك، فانتجز من الله موعوده فيك بالصبر عنك، واستخلصه بالاستغفار لك ".

ولكن حينما يكون الفقيد خليفة فالخطباء يحاولون الجمع بين التعزية والتهنئة، أو الدعوة للبيعة، وأشهرها خطبة **غيلان الثقفي** لما توفي عبد الملك ابن مروان وجلس ابنه الوليد حيث أنه قام خطيبا فحمد لله وأثنى وجمع فيها بين التعزية والتهنئة.

3.4. مجالات أخرى:

هناك مجالات أخرى تلحق بالمجالات الثلاثة السابقة من حيث المضمون أو من حيث الشكل، أو من حيث الجانبين معا، فمجال المناظرات والمحاورات وكذا الوصايا من قبيل الخطب، لاعتماد كل هذه الأجناس على الفنية في الحجج والأدلة، وتوخيها الإقناع والتأثير في السامع لتوفرها على مقام بلاغي سامي. إلا أن المناظرات تختلف في موضوعاتها تبعا للمقام الذي يدفع المتناظرين إلى التناظر لأن خطب المناظرات قد تكون دينية أو سياسية أو اجتماعية و حتى الوصايا فقد تختلف موضوعاتها أيضا حسب ما يتطلبه المقام.

وقد ازدهرت المناظرات الدينية أساسا بين الفرق الإسلامية والمذاهب الكلامية، ومناظرات أخرى بين أطراف لا تمثل مذاهب دينية وخاصة عندما يتعلق الأمر بمناظرة بين مسلم وكافر، أو بين مسلم ومرتد.

تحفل كتب المغازي بنماذج متعددة من مناظرات كانت تدور في ساحات المعارك بين الأطراف المتحاربة قبل سل السيوف و ذلك لأن هدف المسلمين هو الدعوة إلى نشر الإسلام في أوساط الشعوب المختلفة و كانوا لا يعمدون إلى الحرب حتى تستنفد الكلمة دورها، و خير مثال ما دار في غزوة اليرموك بين المسلمين و بين أطراف أخرى نصرانية عربية و رومية، كتلك التي دارت بين خالد بن الوليد و بين ماهان أحد قادة جيش

الرومية.في المقابل ازدهرت أيضا المناظرات السياسية و المشـــاورات بين مختلف الأطراف أفراد و جماعات ،رعاة و رعايا , سلطة و معارضة سواء في عصر الخلفاء الراشدين أو في العصور التي تلته , حيث كان أساس تلك المناظرات يدور حول قضايا الإمامة و ما يتصل بها.

و إذا تتبعنا المناظرات السياسية في العهد الإسلامي من الناحية التاريخية ، فإننا نعتبر خطب السقيفة صورة مبكرة لهذه المناظرات و منها تبادل عثمان بن عفان رضي الله عنه و الناقمونعليه أقوالا و خطبا،و عرف هذا الفن تطورا ملحوظا بعد مقتله رضي الله عنه و خاصة إثر موقعة صفين التي نتج عنها ظهـور عدد من الفرق الإسلاميـــة. بالإضافة إلى ما سبق هناك مجالات أخرى خاضت فيها الخطابة و بما أن دين الإسلام شمل جميع جوانب الحياة فليس غريبا أن نجد الخطابة الدينية تتفرع تفرعات شؤون الحياة المرتبطة بالدين. من ذلك ما عرف بخطاب الحاجة . فلقد روي أن الرسول صلى الله عليه و سلم علم أصحابه هذه الخطبة و فيها **{الحمد لله نحمده و نستعينـــه و نستغفره و نعوذ به من شرور أنفسنا من يهد الله فلا مضل له,و من يضلل فلا هادي له و أشهد أن لا اله إلا الله و أشهد أن محمدا عبده و رسوله}**, ثم يقرأ هذه الآيات **الثلاث {يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة و خلق منها زوجها و بث منهما رجالا كثيرا و نساء}** (الآية1النساء)، **{يا أيها الذين امنوا اتقوا الله و قولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم و يغفر لكم ذنوبكم و من يطع الله و رسوله فقد فاز فوزا عظيما}** (الآية70الأحزاب)،**{يا أيها الذين امنوا اتقوا الله حق تقاته و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون}**(الآية102ءال عمران).

خاتمة.

عملت الخطابة على مشاركة الشعر في الإقناع و التأثير، غير أنها كانت أقل انتشارا من الشعر لأنها صعبة الحفظ لنثريتها. لكن العرب اهتموا بالخطابة للعديد من الأسباب الاجتماعية خصوصا بعد ظهور الإسلام الذي أحدث تحولا جذريا في حياة الأمة العربية.ونقلها من طور القبلية إلى طور الدولة الموحدة و الموحدة.

و كان لهذا الحدث العظيم أن ينعكس صداه القوي في الحياة الأدبيـــة لهذه الأمة نظما و نثرا. و من أبرز آثاره تطور فن الخطابة.فقدأصبحت وسيلة لنشر الدين و الوعظ و بيان مبادئ الإسلام و الحظ على الجهاد، و بيان خطة الحكم و الدعوة إلى مكارم الأخلاق، فاستطاعت بذلك أن تحتل مكانة متميزة عن أجناس القول الأخرى من حيث المتن و من حيث الفن.